القصص الديني في شعر لخضر بن خلوف

د. لخضر حشلافي أ .بديرينة فاطمة
جامعة الجلفة

Résumé
Le poète LAKHDAR BEN KHLOUF a donné une grande inportonce aux récits du patrimoire islamique , en transformant tous ces récits en poème afin qu' ils restent , ça c'est d'une part , d'une autre part autant qu' il était savant lecteur , écrivain , et n' est pas illettré , il les tronsforme sous la forme d'un discours populaire poétique pour que tout le monde puissent les comprendrer en relevant la leçon de morale et ca c'est l'opjectif du poète , il cherche à eduquer la génération pour avoir des gents qui aiment le méfait et travaille pour avoir la vie paradisiaque et néglige cette vie que nous vivont.

الملخص

إن الشاعر لخضر بن خلوف أعطى لقصص التراث الإسلامي أهمية بالغة ، فأخذ تلك القصص بصغيرها وكبيرها وصاغها صياغة شعرية ، حتى لا تضيع ولا تندثر هذا من جهة ، ومن جهة ثانية كان بإمكانه أن يصوغها صياغة نثرية خاصة لأنه كان عالما وقارئا وكاتبا وليس أميا لكنه صاغها في خطاب شعبي شعري حتى يتمكن الخاص والعام من تثبيتها وترسيخها وأخذ العبرة منها ، وهذا هو الهدف الذي كان يصبوا إليه الشاعر من خطابه ، كان يصبوا إلى تبليغ رسالة رسالة الأولين والسابقين للاحقين من الأجيال ، وكذا تهذيب النفوس وتربيتها على حب الخير والعمل لما بعد الموت وترك شهوات الدنيا

قبل أنّ نستعرض أهم القصص الدينية التي ضمنها الشاعر سيدي الأخضر بن خلوف في خطابه الشعري، لا بأس أنّ نذكر بعض الآراء وبعض المفاهيم في مجال القصة الدينية بصفة عامة، والقصص الشعري على وجه الخصوص، فالقصة هي " شكل من أشكال التعبير ، تتبلور فيه أذكى نفحات المشاعر، وتتجلى فيه شتى النوازع والعواطف من إنسانية وقومية وتاريخية واجتماعية ووجدانية من خلال سرد حادثة معينة بأسلوب يستحوذ على القارئ ، ويثير انتباهه فيتابعها بشغف ولذة ، ويسير معها حتى تتأزم المواقف فيها فتصل أحيانا إلي التعقد، فيتطلع عندئذ بلهفة إلي حلّها ونهايتها ، وقد تستولي القصة علي لب القارئ دون أن تتشابك أحداثها أو تتعقد، فيكون عند ذلك تقدير الانفعالي والتحليل النفسي ولسرد الخواطر حسبما تجري في العقل الباطن الفضل في إثارة الانتباه والاندماج في جوّها ومحيطها"[1].

فالقصة بهذا المفهوم هي تعبير يقتضي عبقرية خاصة قادرة على تصوير الأحداث وإبداع الشخصيات المناسبة، وبأسلوب يجذب القارئ أو المستمع، فتسحره بأسلوبها ويتلذذ بعرضها من البداية حتى النهاية، والقصة أيا كانت تحتوي علي ذروة التعقد، وقد لا تكون ولا توجد، و رغم عدم وجود ذروة التأزم والتعقد إلاّ أنّها تستولي على القارئ، وتسحره، لا لشيء سوى لأنّها تخاطب نفسه الباطنة، أحاسيسه ومشاعره، وعواطفه وانفعالاته.

ونضيف رأيا آخر للتلي بن الشيخ حيث يقول:" يمكن القول بأنّ القصة الشعبية تتميز بالبساطة في التعبير، والإيجاز في المعنى، وتحديد الهدف"[2]، فالتلي بن الشيخ، وإن كان أعطى خصائص القصة بصفة عامة من بساطة في التعبير، وإيجاز في المعنى وتحديد للهدف ، إلاّ أنه يعني بالقصة الشعبية الحكاية الشعبية أو الخرافية، بحيث أورد حكايات شعبية، والفرق بين القصة والخرافة شاسع، كون أنّ القصة تكون حقيقية بحتة وقعت بأحداثها وأشخاصها وأمكنتها المعروفة، وهذا ما لا تتضمنه الخرافة أو الحكاية الشعبية، ولقد أعطى الدكتور عبد المالك مرتاض الفرق بين كلّ من الخرافة (Fable) ، والأسطورة(Mythe)، والحكاية الشعبية ذات الأصول التاريخية(Légende)[3].

ولقد ضرب الله تعالى في القرآن الكريم أروع الأمثلة عن قصص الأنبياء و الأولين، ففي سورة يوسف عليه السلام يقول: ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن ﴾ يوسف: 03، ثم يقول على لسان سيدنا يعقوب عندما قص عليه ابنه عليه السلام رؤياه فقال له أبوه: ﴿ يا بني لا تقصص رأياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا﴾ يوسف: 05، ويقول في نفس السورة : ﴿ لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ﴾ يوسف: 111، فالله سبحانه وتعالى يؤكد حقيقة قصة سيدنا يوسف، وهي عبرة لمن أراد العبرة والعظة، فلا وجود للخرافة والخيال كما هي الحال في الحكاية الشعبية أو الخرافية، وعن قصة سيدنا موسى عليه السلام مع الطاغية فرعون يقول تعالى: ﴿ نتلوا عليك من نبإ موسى وفرعون بالحق لقوم يومنون ﴾ القصص: 02، حيث يقص فيها قصة سيدنا موسى عليه السلام مع فرعون الطاغية فقال (بالحق)، وهذا دليل على حقيقة القصة، حيث لا يعتوها الشك ولا الخرافة ولا الخيال، ولقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم في كل مرة يقص على أصحابه قصص الأنبياء والأولين، "كان الرسول صلى الله عليه وسلم كثيرا ما يقص على أصحابه قصصا يتأدبون بآدابها، وكثيرا ما كان يترحم صلى الله عليه وسلم على من قبله من الفضلاء والصالحين، فيقول: "رحم الله موسى، قد أوذي بأكثر من هذا فصبر، رحم الله يوسف إذ كان لذا أناة حليما، رحم الله الأنصار وأبناء الأنصار،وأبناء أبناء الأنصار،رحم الله حميرا، أفواههم سلام، وأيديهم طعام، وهم أهل أمن وإيمان"[4].

وضمن الشاعر قصائده بمجموعة من القصص التراثية بعضها مكنون و مسطور في أمهات الكتب الدينية والتاريخية، و البعض الآخر منها لم نعثر على أثر لها، و قد سألنا العديد من المختصين من الأئمة والفقهاء والمؤرخين فردوا علينا بالنفي و الإنكار، و هذا لا يعني أن الشاعر كان يقص من تلقاء نفسه، بل كان على دراية و عن قصد و عن علم خصوصا و أن الشاعر كان عالما بأخبار السابقين، ومطلعا على الأحداث والغزوات و السير و غزوات الرسول (ص) في الكتب، وربما كان الشاعر اطلع على هذه القصص التي نجهل مصدرها من مصادر و كتب قديمة، و قد تكون ضاعت و اندثرت بسبب كوارث الطبيعة والزمان والإنسان. و لقد روى لنا أحد الرواة أن " الاستعمار الفرنسي وحده قام برمي مائة بغلة محملة كل واحدة منها بالكتب في قاع البحر، لنتخيل أن كل بغلة تحمل خمسين كتابا على الأقل، بعملية حسابية نحصل على 5000 كتاب، ضاع في منطقة سيدي لخضر و ضواحيها فقط، كل هذا ضاع من ثقافتنا التي أراد الاستعمار الفرنسي طمسها كلها لكن بدون جدوى"[5]. هذه شهادة أحد رواة القرن العشرين، فماذا نقول عن ما فعلته فرنسا في مختلف المناطق الأخرى سنوات احتلالها للجزائر؟وماذا نقول عن الاستعمار الإسباني الذي يزيد عن ثلاثة قرون ؟

و لعل أول ما نبدأ به القصص الخلوفي، بيت يختصر فيه الشاعر نزول الوحي على الرسول (ص) حيث يقول:

ليك أنزل القرآن مع الأمين جبريل ❊❊ قال يا محمد خذ الكتاب و اقرأ[6]

تروي كتب السيرة أن أول ما بدأ به رسول الله (ص) من الوحي: الرؤيا الصادقة في النوم، ثم حبب إليه الخلاء، فكان يأتي غار حراء " حتى جاءه الحق و هو في غار حراء، فجاءه الملك، فقال: اقرأ فقال الرسول (ص): ما أنا بقارئ، قال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، قال فأخذني و غطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، قال فأخذني الثالثة حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق﴾ حتى بلغ "ما لم يعلم" ..."[7].

ويقص علينا قصة أخرى جرت بين أخوين وهبهم الله المال الكثير، عاشوا في زمن مضى، أحدهم كان كريما جوادا معطاء سخيا، و أما الآخر فبخيل شحيح، جاعلا يده مغلولة في عنقه، له المال الكثير ولا ينفقه، بل و لا يصدقه على نفسه و عياله، و شاء القدر لهما أن يتوفاهما الله إليه و جاء يوم الفصل، ونصب الميزان، و حضر الكيل، فلا يظلم عند الله أحد،

فغنم الكريم غنما، و نصره الله و ثقلت كفته، وأما البخيل فحبطت كفته، و ساء عمله ، و اكفهر حاله ، فلا فرح بماله ، لا في الدنيا و لا في الآخرة ، ففاز الكريم ، و خاب البخيل . و ها هي ذي القصة على لسان الشاعر يقول:

نوريكم قصة جرات الأيام الفوت ❊❊ ما بين خوتين هابوا المال كثير
عاشوا حتى قضى عليهم الله بالموت ❊❊ وتشتت مالهم على حد الغير
كان منهما البخيل محروم القوت ❊❊ و أما خوه سهمه عند الله كبير
ارتفعوا للشرع إغضاب ❊❊ الميزان انتصب و حضر مكياله
فضوه في الساع بالصواب ❊❊ ونقص مال البخيل و تشين حاله[8]

وإن في القصة لعبرة لمن أراد العظة و الاعتبار، فالفرق شاسع و واسع بين البخيل و بين الكريم، والله سبحانه و تعالى يحذر من الإنفاق إلى حد الإسراف، و يحذر من البخل إلى حد يحسبه الناس فقيرا، حيث يقول: ﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك و لا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا﴾ الإسراء:29.

ويروى لنا الشاعر قصة الطفلة التي وئدت في زمن الجهل والظلام ، فالموءودة هي تلك الطفلة الرضيعة حين وضعتها أمها جاء الكفار إلى أبيها، طالبين منه قتلها، دون ذنب، سوى خوفا من المذلة والهوان و العار، فما كان على الأب إلا أن يسجنها، ويقتلها بطريقة لا مباشرة، فبنى لها سورا عظيما كي لا يسمع صراخها، و سجنها دون أكل و لا شرب حتى تموت فستريح منها، لكن الذي حدث غير ما كان يتوقعه الأب، فبدلا من البكاء و الصراخ، راحت تسبح و تذكر الله بلسانها دون توقف، هذا بأمر من الله إلى الملك جبريل عليه السلام ، فجاء الأب فيحسبها ميتة، لكنه وجدها تذكر و تسبح الله، فلم يرحمها و لم يرق قلبه، بل زاد قسوة و صلابة ، أخذها و قتلها ثم عمد القوم إلى حرقها حتى صارت رمادا ، عندها حن قلب الأب ورق قلبه و ندم على فعلته ، وأخذ يتحسر ويبكي ، ثم أتى إلى الرسول (ص) متضرعا طالبا التوبة والمغفرة والرحمة منه ومن الله تعالى، فسأله الرسول (ص) عن الموضع الذي قتلت وأحرقت فيه، فدله عليه، فدعا له بالغفران، ويصرح الشاعر أنه من معجزته (ص) هبت الريح و جاءت بالرماد ، و رجعت الطفلة إلى حالتها الأولى و نطقت البنت قائلة للرسول (ص) : يا تاج الأنبياء ، لقد رفعني الله منزلة عظيمة في دار الدنيا حيث كان لي لسانا ذاكرا ، فقال لها الرسول (ص) : اختاري الجنة أو العودة لدار الدنيا ، فاختارت الخلود في الجنة ، فأسلم أبوها و ندم ، ثم مات في تلك الحين ، فصلى عليهما رسول الله (ص) ، و دعا لهما بالرحمة و الغفران ، يقول الشاعر :

قصة الطفلة عند الكفرا ❊❊ اسمها الموءودة
جاو لباها كان ظالم ❊❊ قالوا ذا الطفلة
إدها و اقتلها و اعزم ❊❊ لا تخرج علة
اداها باباها و اقتلها ❊❊ في أرض الفلات
بعد ما ماتت حرقوها ❊❊ قالوا النار أولى
قتلها باباها وندم ❊❊ ودموعه حملة
قال أنا نغدى لحاكم ❊❊ طبيب العلة
شهد باباها و اسلم ❊❊ راح بلا نكلة
ثم شفيع الخلق نقدم ❊❊ وعليهما صلى[9]

لقد أحسن الشاعر توظيف أحداث القصة و شخصياتها، هذا ما يوحي بأن القصة من التراث الإسلامي و وظفها الشاعر في قالب شعر شعبي، مما يجعل القارئ يتتبع أحداثها المتسلسلة من بدايتها حتى نهايتها، و كان أسلوبها في غاية البساطة حتى يجعل الشاعر حسن تثبيتها و سرعة ترسيخها و حفظها للاستشهاد بها في مجالس الحديث و مواضع الجدل و النقاش، و الملفت للنظر هو مصدر القصة: من أين استلهم الشاعر هذه القصة ؟ بعد أن اطلعنا على مختلف المصادر و الكتب التراثية التي تخص سيرة الرسول (ص)، و بعد عرضها على أئمة ثقاة، و أساتذة من أهل الاختصاص فلن نعثر على أثر لهذه القصة، خصوصا و أن الشاعر أكد أنها جرت في زمن الرسول (ص)، و ورود شخصية الرسول (ص) ليؤكد على حقيقتها، لأن شاعرا مثل سيدي الأخضر لا يمكن أن يورد قصة مثل هذه، و فيها بطل يمثله الرسول (ص)، والرسول (ص) يحذر من أن يكذب أو يفترى عليه بما ليس فيه . أو أن القصة هي عبارة عن حكاية يتناقلها الناس كما هي، و استقاها الشاعر من الشفاه كما هي في قالب شعري.

ومن القصص الديني يطلعنا الشاعر بن خلوف على قصيدة تروي قصة سيدنا موسى عليه السلام مع ملكين في صورتي حمامة و باز، احتكما إلى النبي موسى طالبين الحكم في أمرهما. يقول الشاعر:

يا سايلني نعيد لكم ذا القصة ⁂ ما بين الباز و الحمامة ماذا صار
كان وحد النهار سيدنا موسى ⁂ يتناجى مع ربنا الواحد القهار
حتى سبقت ليه الحمامة في فرصة ⁂ دخلت تحت القميص قالت يا ستار
يهرق دمي بالغزر نضحى فريسة ⁂ وانا بالضعف ما نطيق نزيد اشبار
هما في ذاك بينهم صار و ما صار ⁂ لن حاف الباز من شوامخ الامزان
قال عليك السلام يانبي الابرار ⁂ هذا الحمام خالقي بيه اعتقني[10]

القصيدة و أحداث القصة جرت بين ثلاث شخصيات هي: سيدنا موسى والحمامة ثم الباز، فوقائع القصة جرت بين إنسان بشر عاقل و بين طيرين ناطقين يفهم لغتهما النبي موسى عليه السلام: فالحالة الأولى كانت مستقرة هادئة حين كان موسى يناجي ربه، ثم تضطرب الحالة المستقرة، وتضطرب بظهور الحمامة في فجأة البرق تستنجد بالنبي موسى بالخطر الذي يلاحقها (الباز)، يريد افتراسها، وأخذ حوار طويل بين الثلاثة، إذ أن الباز أصر على افتراس الحمامة مهما كلف الأمر، و أما الحمامة فتدعي أن صغارها في انتظارها لتجلب إليهم القوت كي تكسب شفقة موسى و يمنع الباز من افتراسها، و أخيرا يتوصل النبي موسى إلى حل يرضي الطرفين فاقترح على الباز بأن يقطع من لحمه و يناوله لحمه مقابل إخلال سبيل الحمامة، فرضي الطيرين بالحل فأخذ موسى سكينه و أحكم رحيه، فأبى السكين إلا أن يقطع لحم النبي موسى، فكرر ذلك ثلاث مرات، عندئذ طارت الحمامة بجوار الباز وجلست بجنبه بعد خوفها وفزعها نطق الباز قائلا لموسى : أنا الملك جبرائيل ، و هذه الحمامة هي الملك ميكائيل، جئنا لنختبراك فوجدناك من الأخيار، ففرح سيدنا موسى و انشرح فؤاده فرحا و هنئ ضميره وخاطره ، لأنه أدى الذي عليه ، وعدل بين الطيرين . و يختم الشاعر قصيدته بأنها حقيقة وجدها في الكتب، فوظفها في قالب شعري: قال الشاعر:

طار الورشان جاحذا الباز وسماه ⁂ من بعد الخوف عاد هاني من روعه
قال أنا جبريل يا نبي الله ⁂ وهذا ميكائيل ليك جينا نشترعوا
غير اختبرناك ووجدناك من الاخيار ⁂ من المتوكلين انت صديق و رباني
هذا القصة ختمتها باسم القهار ⁂ و اللي جا في الكتب راه قاله لساني[11]

لقد كان الشاعر فعلا عبقريا في طريقة التصوير وعرض الأحداث وتبسيط المعاني وتقريبها من القارئ، و هذا هو سر خلودها لأن المخيال الشعبي يحن ويلتف وينجذب نحو هذه القصائد التي تحمل بين أبياتها قصصا و عظية هادفة، و أول ما يلفت النظر هو الحوار الجميل، الذي أحسن الشاعر توظيفه بين الشخوص الثلاثة: الباز و الحمامة و النبي موسى عليه السلام، إلى أن فصل و عدل موسى بين هذين الطيرين و تبين أنهما ملكين في صورة طيرين جاءا الاختباره وامتحانه فوجداه خيرا من الأخيار، و برا من الأبرار.

و إذا بحثنا عن الدلالات المختلفة للحمامة و الباز و الإنسان، نعثر على هذه المعاني و البؤر الدلالية المختلفة من خلال القصيدة:

1-الحمامة : طير، أنيس ظريف، ضعيف، ذكي، حكيم، يحب الحياة، يخشى الموت، يستنجد بالإنسان كلما أحس بالخطر، لا يعتدي على من هو أقل منه، تجده مرحا في كل الأوقات بهديله و صوته الحنين، صبورا، رمز الحياة والميلاد الجديد والسلام...

2-الباز: طير، متوحش ، قوي ، مطارد ، مفترس ، يحب الكبرياء باعتباره يحلق في الآفاق ، يغدر بالفريسة إذا ما لمحها ، ليس في قلبه رحمة ، خطير، أناني ، لا يصبر و لا يتحمل المشاق و العناء ...

3-الإنسان:

عاقل، راشد، رشيد، يدفع الأذى عن الآخرين، يحترم الغير، يعطف على الضعفاء، عادل، رحيم بالطيور ، شاكرا لنعم الله ، يحترم آراء الآخرين ، خير، حكيم ، محسن إلى الكل ، لا يحب الشر...

فالحمامة في القصيدة تريد الحياة، وتكره أن تموت بين مخالب الباز، والباز يحب الحياة أيضا ولا يرضى برزق غائب غير مضمون، وقد ضمن الله له الحمامة والإنسان يحترم هذا ولا يهين تلك، تنازل عن حقوقه و من لحمه تجنبا لوقوع الفتنة، و إرضاء للطرفين ، فالعلاقة بين الإنسان والطيور علاقة حميمية والانسانية هي التي تتغلب في الأخير بالحكمة والمنطق و الإقناع. كما يقول تعالى: "ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر و البحر و رزقناهم من الطيبات و فضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا " الإسراء:70. وتهدف هذه القصة إلى وجوب العدل في الأمور مهما كان الأمر ولو أدى المرء إلى الانتقاص من حقوقه إرضاء لكسب محبة الغير كما تهدف إلى وجوب تسبيق الحكمة والعدل وترشيد هما، والصبر على البلوى والمكاره وكل ما يعترض له الإنسان.

ويقص علينا الشاعر قصة أخرى من خطابه الشعري، وهذه القصة جرت وقائعها زمن الرسول صلى الله عليه وسلم في غزوة من غزواته، وبينما هو في طريقه، وقد شق عليهم المسير، إذ طلع عليهم غلام راع يحمل ماء، وكان الرسول وأصحابه العشرة قد اشتدبهم العطش، فتحدث إليهم الراعي ويسمى عمر بن البزيد –كما ورد في القصيدة- مخاطبا سيد القوم رسول الله صلى عليه السلام: ماذا تريدون؟ ، فطلب منه الرسول صلى الله عليه وسلم أن يعطيه وأصحابه ماء للشراب لأنهم عطش الرسول صلى الله عليه وسلم: أنا رسول من الله إلى العالمين، بعثت للبشرية بالفرائض والسنن، فاغتاظ الغلام وقال للرسول صلى الله عليه وسلم لسنا منك، ولست منا، عندها غضب علي كرم الله وجهه والصحابة، وراحوا مشحونين غيظا، فحثهم الرسول صلى الله عليه وسلم على الصبر، لأن الصبر مفتاح كل الأبواب، ودعا عليا أن يعفو عن الغلام، لأنه جاهل وصغير، وبالتالي له عذران فواجب إعطاؤه فرصة أخرى لعله يستشعر حقيقة هذا الدين، يقول الشاعر:

بسم الإلاه نبتدأ القصيدة يا حضرة ❊❊ والصلاة على الرسول العدناني

نوريكم قصة الغلام المعتبرة ❋❋ عمر بن اليزيد راعي الحيواني
آسمعوا يا عباد مني ذو الآبيات ❋❋ ما جا في قصة الغلام بن البزيد
يوم آخرج الرسول في بعض الغزوات ❋❋ لحق عند الإبل راعي ولد فريد
قال الغلام لعنبي يا نعم السادات ❋❋ آعندك ما تسال وسال ما تريد[12]

بعدها يعطي الغلام حمل الماء للرسول (ص) و يشرب وحده دون غيره، خشية أن ينفذ له الماء ويهلك في هذه البيداء القاسية، فرد عليه الرسول (ص) بأنه لن يشرب وحده و أصحابه ينظرون فهذا ليس من الحكمة و المنطق، عندها قبل الغلام شرب الجميع، و يتركوا له شربة تكفيه حر هذه الصحراء، ومن بركته عليه السلام، صار الماء مثل اللبن في مذاقه، فشرب الجميع، و بقي الحمل و كأنه لم يشرب منه أحد، ثم أخذ الرسول (ص) يحدث الولد عن دين الإسلام و عن ترك عبادة الأصنام التي لا تنفع و لا تضر، وعرض عليه الرسول (ص) الدخول في الإسلام، فقبل الولد، شرط أن يقضي له حاجته، و يوفي له طلبه الذي يقلقه، إنه أمر تلك الحية العظيمة التي تسكن الواد منذ أعوام، و بجانبها نخلة عظيمة فقدت اخضرارها، تسبح و تصلي على الرسول (ص)، و أصر الغلام على إسلامه شرط أن يرى الحية تسجد وتلبي للرسول (ص)، و يرى النخلة تحيا بعدما آلت إلى الهلاك، و ذهب الجميع و رأوا هول الحية تخرج من وكرها و عندما رآها الرسول (ص) بكى و تذكر حيات العذاب في جهنم ليلة المعراج، فنادى الرسول (ص) الحية فجاءت ملبية لندائه، فسألها عن سبب ركونها في هذا الوادي، فأجابته بأنها جاءت من البحور الهاوية من الله تعالى إلى كل من كفر به و لم يؤمن برسوله، فطلب الغلام بقتلها، و ينزل الروح الأمين (جبريل) موحيا إلى الرسول (ص) بأن يلبي طلب الغلام، فصاح الرسول (ص) فأتته الجبال، والتقت، فصيرت الحية رمادا بعدما انشقت الأرض واشتعلت نارها فأحرقت الحية حتى صارت غبارا تذروه الرياح إلى وجهة مجهولة، يقول الشاعر :

قال المختار يا غلام اترك الاصنام ❋❋ من لا تسمع و لا تضر و لا تنفع
تقبل شرطي عليك ذا قول الغلام ❋❋ تقضي لي حاجتي نأمن بك الساع
قال الغلام يا محمد إذا رأيت ❋❋ هذا الواد و انظرت الحية فيه
تسجد و تصفق لك أنا ظنت ❋❋ ندخل الدين اللي تامرني بيه
صاح المختار كم جبل أتى ❋❋ تركوا الحية رماد كالثوب الحريق[13]

وتتوالى أحداث القصة، حيث يذهب الرسول (ص) مع جميع أصحابه و الغلام إلى النخلة التي أشرفت على الهلاك، ومن عظمته عليه السلام، تقصر النخلة على شموخها إلى أن تصل إلى طول الرسول (ص) فسألها عن سوء حالها، فأجابته بأن الكفار اتخذوها إلاها من دون الله، يعبدونها ويسجدون ويركعون لها، فأبت إلا تحزن و تعبر عن غضبها بيبسها بعد خضرتها، و عندئذ عادت إلى اخضرارها المعتاد و أثمرت و صارت خضراء بعد طول حزنها عن باطل القوم و بعدما رأى الغلام ما فعل الرسول (ص)، أسلم ونطق بالشهادتين، بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبرسول الله (ص) نبيا مرسلا، وذهب الغلام إلى قومه الكفرة، فقص عليهم قصة النبي (ص) مع الحية و النخلة، فاتهموه بالسحر والكذب، وتوعدوه بالعذاب والوعيد، فتشاوروا عليه، فمنهم من قال بالعذاب حتى يموت، ومنهم من قال برميه في حفرة وسجنه حتى يموت، ومنهم من قال بجلده حتى يذكر آلهتنا وأصنامنا، واتفقوا على سجنه دون أكل ولا شراب، فسجنوه في بيت مظلم، لا مدخل له ولا مخرج، لا طعام له ولا ماء ولا هواء، فأخذ الغلام يذكر ربه ويناجيه بعدما آمن بقلبه ولسانه، ويدعوه أن يخلصه مما هو فيه، فنزل جبريل واخترق البيت، و أتاه بحليتين من الجنة، وبشره بمقعده فيها، وبعد أيام أتى القوم ليتفقدوا الغلام،

فيحسبونه ميتا في اعتقادهم، لكنهم يتفاجؤون به حيا يذكر الله عز وجل، ويكفر بآلهتهم، فثارت ثائرتهم وزاد وه بطشا، فقيدوه بالأغلال، وأركبوه دابة، وخلوها تسير به في الصحراء الموحشة المقفرة حتى يموت، وبينما الدابة تسير، بعيدا حتى ابتعدت عن أنظارهم، حتى نزل جبريل وفك القيود وقاده إلى أن وصل إلى الرسول (ص)، ففرح فرحا شديدا، وسعد الجميع بلقاء الغلام، وارتاح الغلام من عذاب القوم إلى لقائه بخير الأنام، يقول الشاعر:

قال لها مالك احترقت يا شجرة ⁂ قالت له يا المصطفى كيف تراني
اتخذوني إلاه عبدوني الكفرا ⁂ واجب في كل يوم تزداد أحزاني
قال الغلام لأهله أناس جبار ⁂ صدق محمد الشفيع رسول الله
قالوا له ويحك التقيت مع السحار ⁂ قال لهم نوجد البقاء في سر الله
بسلاسل من حديد شدوه الكفار ⁂ على ظهر زايله سارت به تهوم
نزل جبريل قوده حيا وجرى ⁂ ما فارقه لن وصله للعدنان[14]

إن هذه القصة المستقاة من التراث الإسلامي، استوحاها الشاعر ووظفها في قالب نظمي، ولعل أول ما يشد انتباه القارئ هو أسلوب القصيدة المتميز، و طريقة تصوير الوقائع و الأحداث، ولقد كان الشاعر بارعا في تسلسل الأحداث، وحسن اختيار التراكيب الشعبية التي تصيب المعنى وتشد انتباه السامع، وبالتالي وصول الرسالة كاملة، ومما أضفى على القصيدة جمالا وروعة هو أسلوب الحوار الذي يتخلل المقاطع، وهذا هو سبب حفظها وتلقيها، وسرعة ترسيخها، وهذا هو السر في خلود مثل هذه القصائد إلى أجيال متعاقبة، رغم مرور مئات السنين، وهي اليوم رسالة ينبغي حفظها لتبقي مطية للتحليل والدراسة والنقد، والخوض في روح معانيها ودلالاتها، وبالتالي استخلاص خصوصياتها الصوتية والصرفية والنحوية والتركيبية والدلالية، باختلاف المناهج و النظريات، و هكذا تتعدد القراءات، وتتعدد الرؤى، و يبقى النص هو الرافد و المعين والمنهل.

وتهدف القصة إلى إبراز الدور البطولي لشخصية الرسول (ص)، و فضائله، و شمائله، ومعجزاته التي أكرمه الله سبحانه وتعالى به، كما تهدف إلى وجوب الجدال بالكلمة الحسنة، والكلام المعسول الحلو حتى تكسب وتقنع من معك في الجدال والنقاش. وإن أشخاص القصة تتركز حول الرسول (ص) والغلام، إضافة إلى علي، والكفار، وشخصية الملك جبريل.

والقصيدة قوية في صياغتها وطرق البيان فيها، مليئة بالصور المتراكبة، مع نبرة موسيقية تعلو حينا وتخفت حينا أخر يجعلها مؤثرة في الوجدان، مع اعتماد الأسلوب المباشر لتصل الرسالة مفهومة غير مبهمة لمتلقيها. فالشعر الشعبي كما يقول عبد الله الركيبي"إن الشعر الملحون له بلاغته الخاصة مثل الشعر المعرب، فالمهم في ذلك هو تأثيره في جمهوره وتعبيره عن قائله، وعما يجول في ذهنه من أفكار وما تضطرم به نفسه من مشاعر وأحاسيس، بأسلوب جميل ينفعل له المتلقي، فالفصاحة في الكلمة والبلاغة في المعنى، ليستا مقصورتين على اللغة الفصيحة المعربة وإنما تشاركها في ذلك لغة الشعر الملحون[15]".

وهناك قصيدة أخرى يضمنها الشاعر بن خلوف قصتي شداد بن عاد و النمرود اللذين تجبرا وتكبرا وطغوا في البلاد، وفقدوا إنسانيتهم، وأهلكوا الحرث والنسل، يقول الشاعر:

يا حارثين الدنيا وهي أم الغرور ⁂ غرت من قبل النمرود و شدادها
في إرم ذات العماد بنى كم قصور ⁂ من الذهب والفضة و الزبردج زانها
وعيون لها جرات بمسوك وكافور ⁂ من اللبن والعسل والخمر ودیانها
ما دخل للقصر ذا الزنبيل الجاير ⁂ ما شاف عين ولا حور أصلا

مياة عام وهو يبني في الساس ❋❋❋ ومياة عام يجلب المياه التامة
مياة عام يرصع ذوك الأقواس ❋❋❋ ومياة عام تزويق للدار الهادمة[16]

بدأ الشاعر قصته باختصار قصة النمرود الذي عاث في الأرض فسادا، وهو الذي حاج إبراهيم في ربه وهو" ملك بابل نمرود بن كنعان بن كوش بن سام بن نوح، ويقال نمرود بن فالخ بن عابد بن سالخ بن ارفخذ بن سام بن نوح، قال مجاهد: ملك الدنيا مشارقها ومغاربها أربعة: مؤمنان وكافران، المؤمنان سليمان بن داوود و ذو القرنين، والكافران نمرود و بختصر...وبعث الله إلى ذلك الجبار ملكا يأمره بالإيمان بالله فأبى عليه، ثم دعاه الثانية فأبى، وقال : اجمع جموعك وأجمع جموعي،فجمع النمرود جيشه وجنوده وقت طلوع الشمس فأرسل الله عليهم بابا من البعوض بحيث لم يروا عين الشمس، وسلطها الله عليهم، فأكلت لحومهم ودمائهم وتركهم عظاما بادية، ودخلت واحدة منها في منخري الملك فمكثت في منخري الملك أربعمائة سنة. عذبه الله بها، فكان يضرب برأسه بالمرازب في هذه المدة حتى أهلكه الله بها[17]"، إن الجبابرة الأولين أمثال النمرود وقارون وفرعون و هامان، تجبروا فأهلكهم الله بعذابه، ليكونوا عبرة للعالمين، والنمرود دعا لنفسه الألوهية والقوة والجبروت، فأهلكه الله بأحقر وأضعف ما خلق الله، ببعوضة خنقته، والقران الكريم خلد لنا قصة جداله مع سيدنا إبراهيم، حتى بهت و تعجب وذهل من عظمة ما سمع، ورغم ذلك لم يؤمن، وتمادى في طغيانه حتى أهلكه الله ، يقول تعالى : " ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن أتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربي الذي يحي ويميت قال أنا أحيي وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فات بها من المغرب فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين" البقرة (257).

ثم يتناول الشاعر بعد قصة النمرود، قصة ارم ذات العماد، تلك المدينة ذات القصور العالية المرصعة بالذهب والفضة والزبرجد اللامع، فيها عيون جارية، من المسك والكافور، فيها أودية اللبن والعسل والخمور ، إنما جنة فوق الأرض، لم يسبق لمثلها جنة، و لم تر جنة بعدها، كان يحكمها ملك جبار عنيد، هو شداد بن عاد، الذي استكبر في الأرض بقوته، و غرته قوته أمام قوة الله عز وجل، بنى قصرا عظيما، مائة سنة وهو يضع أساسه وقواعده، و مائة عام وهو يجلب المياه لبنائه، ومائة سنة وهو يرصع أقواسه، ومائة عام وهو يزين ويجمل، لكن شاءت الأقدار أن لا يسكنه، و أهلكه الله دون يدخله، بعدما كان له أربعة آلاف امرأة جميلة، وركب من الخيول أربعة آلاف من خيرة و أجمل الخيول، و لظلمه وجوره، أهلكه الله و قومه، ويقص القران قصة (ارم ذات العماد) قوم هود الذي دعاهم إلى الله، فلم يؤمنوا في عدة مواضع من سوره حيث يقول تعالى:"فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد قوة أو لم يروا أن الله الذي خلقهم أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون" فصلت(14)

ويقول في موضع آخر:"الم تر كيف فعل ربك بعاد ارم ذات العماد التي يخلق مثلها في البلاد" الفجر من 05 إلى07. وتذكر المصادر التاريخية أن (ارم ذات العماد) هي قبيلة عاد الأولى:"وهم ولد عاد بن ارم بن عوص بن سام بن نوح... وهم الذين بعث الله فيهم رسولا هودا عليه السلام فكذبوه وخالفوه فأنجاه الله من بين أظهرهم ومن آمن معه منهم وأهلكم بريح صرصر عاتية سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية فهل ترى لهم من باقية ؟..و من ذكر مدينة يقال لها ارم ذات العماد مبنية بلبن الذهب و الفضة . قصورها و دورها و بساتينها ، و إن حصباءها لآلىء وجواهر ، وترابها بنادق المسك و أنهارها سارحة و ثمارها ساقطة و دورها لا أنيس بها ، و سورها و أبوابها تصفر ليس بها داع ولا مجيب ...فإن هذا من خرافات الإسرائيليين من وضع بعض زنادقتهم ليختبروا بذلك القول الجهلة من الناس تصدقهم في جميع ذلك.."[18].

و نصل من حيث انتهى إليه الإمام ابن كثير إلى أن الشاعر سيدي الأخضر بن خلوف قد اطلع على قصة (ارم ذات العماد) من بعض الكتب التي قالت بخلاف ما ذكره ابن كثير في وصف القبيلة التي لم يخلق مثلها في البلاد ، قبيلة قوم هود التي أهلكها الله، حيث قال ابن كثير بأنها من الإسرائيليات التي تدس السم في الدسم، و تحاول التشكيك و التشويه لتاريخ الأمم و بخاصة تاريخ العقيدة الإسلامية.

إن الشاعر بن خلوف أعطى لقصص التراث الإسلامي أهمية بالغة ، فأخذ تلك القصص بصغيرها وكبيرها وصاغها صياغة شعرية، حتى لا تضيع و لا تندثر هذا من جهة ، و من جهة ثانية كان بإمكانه أن يصوغها صياغة نثرية خاصة لأنه كان عالما و قارئا و كاتبا و ليس أميا لكنه صاغها في خطاب شعبي شعري حتى يتمكن الخاص و العام من تثبيتها و ترسيخها و أخذ العبرة منها، و هذا هو الهدف الذي كان يصبوا إليه الشاعر من خطابه، كان يصبو إلى تبليغ رسالة الأولين والسابقين للاحقين من الأجيال، وكذا تهذيب النفوس و تربيتها على حب الخير و العمل لما بعد الموت وترك شهوات الدنيا.

قسم الهوامش :

[1]– مريدين عزيزة، القصة الشعرية في العصر الحديث، المطبوعات الجامعية، الجزائر، دت، ص 13.

[2]– التلي بن الشيخ: منطلقات التفكير في الأدب الشعبي الجزائري، المؤسسة الوطنية للكتاب.

[3]– ينظر مرتاض عبد المالك الميتولوجيا عند العرب، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989 ص 11.

[4]– ابن مريم الشريف المليتي المديوني التلمساني عبد الله محمد بن محمد بن أحمد: البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، ص 15 وما بعدها.

[5]– من مقابلة مع الأستاذ جلول دواجي عبد القادر36 سنة يوم 2013/02/28.

[6]– بخوشة محمد بن الغوثي: ديوان سيدي الأخضر بن خلوف، شاعر الدين الوطن، مطبعة الشمال الإفريقي الرباط 1958، ص 101 .

[7]– الغزالي أبو حامد : إحياء علوم الدين ج 5 ، ص 128 الحديث برواية عائشة رضي الله عنها .

[8]– بخوشة محمد : الديوان ، ط2 ، ص 111 .

[9]– بخوشة محمد : الديوان ، قصيدة (بسم الله بديت نزمم) ص 127 .

[10]– بخوشة محمد : الديوان قصيدة (صلوا و سلموا) ص 131.

[11]– نفسه ص 133.

[12]– بخوشة محمد: الديوان، قصيدة (بسم الله نبدأ القصيدة)، ص 119.

[13]– بخوشة محمد: الديوان، ط2، ص 124.

[14]– بخوشة محمد: الديوان، قصيدة(صلوا وسلموا)، ص124

[15]– الركيبي عبد الله : الشعر الديني الجزائري الحديث، ص491 وما بعدها.

[16]– بخوشة محمد : الديوان، قصيدة(أوياك راه علر بشيبي)ص173.

[17]– ابن كثير الحافظ عماد الدين، أبو الفداء اسماعيل ابن كثير القرشي الدمشقي: تفسير القران العظيم، الجزء الأول، دار المعرفة بيروت: لبنان1402هـ/1982م،ص313ومابعدها .

[18]– ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ، ج4، ص507 و 508 .